الفصل الثالث

منزلة الصبر والصابرين في القرآن

المتتبع للمواضع التى ذُكر فيها الصبر والصابرون فى القرآن الكريم يتضح له بجلاء لا يقبل الشك ، أن الصبر مقام من أرفع مقامات الدين ، وخُلُق من أعظم أخلاق المؤمنين ، ومنزلة من أجل منازل الصالحين ، وشعبة من أبرز شعب الإيمان، وعروة من أوثق عرى الإسلام ، حتى إن القرآن جعله مفتاح كل خير ، وباب كل سعادة فى الدنيا والآخرة .

والدليل على ذلك عدة أمور :

أولاً : اقتران الصبر بالقيم الروحية العليا فى الإسلام

إن القرآن الكريم قرن بين الصبر وبين قيم الدين العليا ، وأخلاقه المثلى ، ومثله الفضلى ، واقتران الشيء بالشيء ، أداة من أدوات القرآن الرائعة فى الدلالة على المعانى وتثبيتها . ومن ذلك أنه قرن الصبر :

(أ) باليقين فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٤).

والمراد باليقين ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة ، إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار[1] (يعنى باعتبار أن الإيمان يُطلق على التصديق والأعمال جميعاً ، فيكون له ركنان أحدهما يمثل المعرفة والتصديق وهو اليقين ، والآخر يمثل الحركة والعمل ، وهو الصبر . وهذا هو سر الاقتران بينهما).

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ ٦٦ .

ثم إن شياطين الإنس والجن يغزون قلب الإنسان بسلاحين .

أحدهما : سلاح الشهوات لإفساد سلوكه ، فيغوى .

والثانى : سلاح الشبهات لإفساد فكره ، فيضل .

وعلى المؤمن أن يصد الغزو ويجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى، هما :

١- سلاح الصبر ، ليجاهد به الأهواء والشهوات .

٢- وسلاح اليقين ، ليجاهد به الشكوك والشبهات .

وبهذين ينتصر فى داخله الإنسان على الحيوان والشيطان .

(ب) وبالشكر ، فى مثل قوله تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وقد تكررت هذه الفاصلة القرآنية أربع مرات فى أربع سور مكية[١].

ويقول بعض المفسرين فى معنى ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، أى كل مؤمن ، لأن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

ويشرح الإمام الغزالى معنى نصفيّة الصبر للإيمان ، فيذكر أن الإيمان كما يُطلق على التصديق القلبى والأعمال الناتجة عنه ، قد يُطلق باعتبار آخر ـ على الأحوال النفسية المثمرة للأعمال . وعند ذلك ينقسم ما يلاقيه الإنسان إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى ما يضره حال « الصبر » . . وبالإضافة إلى ما ينفعه حال « الشكر » ، فيكون « الشكر » أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار ، كما أن « اليقين » أحد الشطرين بالاعتبار السابق . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر »[٢]. وقد يُرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة إبراهيم :٥ ، ولقمان:٣١ ، وسبأ:١٩ ، والشورى:٣٣ .

(٢) قال الغزالى : ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين :باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ـ قال ﷺ بهذا الاعتبار :« والصوم نصف الصبر » لأن كمال الصبر عن دواعى الشهوة ، ودواعى الغضب جميعاً ، فيكون الصوم بهذا ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن نفهم تقديرات الشرع . (الإحياء جـ٤ صـ٦٦).

وقد جمع الرسول ﷺ بين الشكر والصبر فى حديثة حين قال : «عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له»[1].

(جـ) وبالتوكل ، فى مثل قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل:٤١،٤٢) ، وقوله : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٨،٥٩).

وإنما جمع بين الصبر والتوكل ، لأن نجاح الإنسان فى تحقيق مراده يتوقف على أمرين : أمر من جانبه ، وفى وسعه ، من جهود تُبذل ، وأثقال تُحمل ، وصعاب تُذلَّل ، وهذه كلها تحتاج إلى صبر .

والأمر الآخر : ما لا يملكه ، وليس فى وسعه ، مما يضمره الغيب ، وتختبئه الأقدار ، من أحداث كونية ، وظروف خارجية ، ومفاجآت غير متوقعة ولا محسوبة ، ورياح تُجرى السفن بما لاتشتهى . فهذه لا يملك المؤمن إزاءها إلا التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والثقة بتدبيره ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٤٩) عزيز : لا يذل من التجأ إليه . حكيم : لا يضيع من وثق بتدبيره .

(د) وبالصلاة ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣).

والصبر هنا يمثل دور الإرادة البشرية ، أما الصلاة فهى ـ كالتوكل ـ تمثل دور المعونة الإلهية ، ولا غنى للمؤمن عنها . ونحو ذلك قوله تعالى فى سورة هود : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود:١١٤،١١٥).

(هـ) وبالتسبيح وبالاستغفار ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور:٤٨) .

---

(١) رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

(و) وبالجهاد ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (محمد: ٣١).

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٠).

ومعلوم أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام كما فى الحديث النبوى الذى رواه الترمذى عن معاذ ، وأن احتمال مشقات الجهاد ومتاعبه ، وما فيه من بذل النفس والنفيس فى سبيل العقيدة لا يتم إلا بالصبر . فلذا جمع بينهما .

(ز) وبعمل الصالحات ، فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود: ١١).

ولا ريب أن عمل الصالحات لا يتحقق إلا بالصبر ، والصبر قبل العمل بإخلاص النية وتنقيته من شوائب الرياء ، فإنما الأعمال بالنيات ، والصبر أثناء العمل ، بإتمامه على الصورة المرادة للشرع ، الموافقة للسنة ، والصبر بعده بألا يأتى بما يبطله من العُجب والغرور ونحو ذلك من المفسدات للأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٣) ، وقال : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٦٤)

(ح) وبالتقوى ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦) ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ (آل عمران: ١٢٠) ، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠)

قال فى « قوت القلوب » : « والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر ، لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه ، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله ، فصار الصبر أفضل الأحوال ، من حيث كانت التقوى أعلى المقامات ، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله ، والأكرم على الله هو الأفضل »[1].

---

(١) قوت القلوب جـ١ صـ ١٩٧ .

(ط) وبالحق فى سورة العصر حيث قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١-٣)

فجعله أحد الأركان الأربعة التى لا بد منها لنجاة الإنسان ـ كل إنسان ـ من خسران الدنيا والآخرة ، وهى الإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وإنما قرن التواصى بالصبر بالتواصى بالحق ، للدلالة على أن تكاليف الحق ثقيلة ، وأعباءه جسيمة ، وأن طريقه محفوفة بالمكاره ، مزروعة بالأشواك ، فلا بد لمن جند نفسه للحق موصياً به وداعياً إليه ، أن يوطن نفسه على الصبر فى سبيله ، فلا يُنصر حق بغير صبر ، ولا تستغنى جماعة تتواصى بالحق عن التواصى بالصبر .

ونظير هذا ما جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان:١٧). فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بد أن يجرا على صاحبهما الأذى من الخلق ، فلا غرو إن قرنت الوصية الحكيمة بينهما وبين الصبر على ما يصيب المرء ، تأكيداً للمعنى الذى ذكرناه .

ومن تعظيم الصبر هنا : أنه كرر لفظة التواصى به ، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل ، وذلك للتنبيه والتأكيد على مكانة الصبر ، وأهميته المستقلة بذاتها ، واستحقاقه لأنه يتواصى به أصلاً لا تبعاً .

(ى) وبالرحمة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد:١٧).

وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ (البلد: ١١-١٨).

فكلمة « ثم » هنا للدلالة على الترقى من درجة إلى أعلى منها . فليست « ثم » هنا للترتيب والتراخى فى الزمن ، بل فى الرتبة والدرجة . مما ينبئ بالقيمة العليا لما ذُكر بعدها . وهو يتمثل فى ثلاثة أشياء : الإيمان ، وهو بلا ريب أساس البناء ، ومحور كل

خير وصلاح . والتواصى بالصبر ، وهو أساس النجاح والنجاة فى الدنيا والآخرة . ولم يكتف القرآن بطلب التحلى بالصبر ، بل طلب التواصى به ، لما ذكرناه فى سورة العصر ثم قرن به التواصى بالمرحمة ، لأن المرحمة هى المحرك لفعل الخير ، والإحسان إلى الناس ، وبخاصة أهل الضعف والحاجة ، كالرقيق واليتيم والمسكين . ومما يلاحظه المتتبع لألفاظ القرآن أن كلمة «تواصوا» لم ترد فيه إلا أربع مرات : اثنتان فى سورة «العصر»، ومثلهما فى سورة «البلد». وقد كان له ـ أى الصبر ـ مرتان من هذه الأربع ، وهذا يدل على أمرين .

أولهما : فضله ومكانته وأهميته فى دين الله وحياة المؤمنين .

ثانيهما : مشقته على النفوس ، بحيث يحتاج إلى التوصية والتذكير به بين المؤمنين بعضهم وبعض . فكل فرد مؤمن عليه أن يوصى غيره بالصبر كما يقبل الوصية به منه .

ثانياً ـ التنويه بمكانة الصابرين وموضعهم فى أهل الإيمان

نوَّه القرآن بمكانة الصابرين ، وبَيَّن موضعهم من أهل الإيمان والتقوى الفائزين بالجنة والناجين من النار .

(أ) ففى بيان القرآن لحقيقة البر وصفات الأبرار ، رداً على اليهود المتمسكين بالرسوم والشكليات الفارغة من روح التدين الحق ، والذين جعلوا الدين مجرد مظاهر سطحية لا تحقق براً ، ولا تنشئ تقوى . ولهذا أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من جهة إلى أُخرى بأمر ربهم .

هنا يرسم القرآن المعالم الأساسية للبر والتقوى ـ وبعبارة أُخرى ـ للتدين الحقيقى الصادق ، لا التدين الوراثى الزائف ، فيقول فى سورة البقرة : ﴿ **لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** ﴾ (البقرة:١٧٧).

تحدثت الآية عن بر العقيدة : من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وبر العمل من إيتاء المال على حبه ذوى القربى ومن بعدهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . . وبر الأخلاق ، فذكرت خُلُقين رئيسيين هما : الوفاء بالعهد ، وهو يشمل العهد مع الله ، والعهد مع النفس ، والعهد مع الناس . والصبر فى البأساء (الفقر والحاجة) ، والضراء (المرض والألم) ، وحين البأس (ساحات المعارك والحروب) .

وقد ميزت الآية الصبر هنا حين غيَّرت إعراب «الصابرين» من حالة الرفع عطفاً على «الموفون» قبلها . إلى حالة النصب ، دلالة على الاختصاص وتنبيهاً للقارئ العارف ليقف عند هذا الوصف المتميز ، كأنه يقول : وأخص بالذكر أو المدح والثناء هنا : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ (البقرة:١٧٧) ثم يجىء ختام الآية ملاصقاً لهم ، ومتصلا بهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

(ب) وفى حديث القرآن عن صفات المتقين الذين أعد لهم جنته ورضوانه فى سورة آل عمران ، يجعل اتصافهم بالصبر فى مقدمة ما تحلوا به من أخلاق بعد الإيمان بالله تعالى وذلك إذ يقول : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

(آل عمران:١٥-١٧)

(جـ) وفى بيان القرآن لأوصاف المخبتين ـ وهم أهل الخشوع والتواضع والطمأنينة والسكينة ـ فى سورة الحج ، يجعل الله تعالى الصبر من أجمل حلاهم ، وأبرز مزاياهم : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الحج:٣٤،٣٥) فقد ذكر الصبر بعد وجل القلوب من ذكر الله ، وقبل إقامة الصلاة والإنفاق مما رزق الله . فالمخبتون لهم وصفان نفسيان هما : الوجل والصبر ، ووصفان عمليان هما : الصلاة والإنفاق .

(د) وفى سورة الأحزاب يُعَدِّدُ الله المقامات الدينية ، والفضائل الخُلُقية للجنسين من المسلمين والمسلمات ممن أعد لهم المغفرة والأجر العظيم . فيرينا الصبر إحدى

السمات البارزة فيقول : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٣٥).

ثالثاً : ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر

رتب القرآن خيرات الدنيا والآخرة على فضيلة الصبر ، فالنجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع ، منوط بالصبر ، من هذه الخيرات التى ذكرها القرآن :

١- معية الله تعالى للصابرين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣)، وقد ذُكرت هذه المعية فى القرآن فى عدة مواضع :

(أ) فى سورة البقرة حيث أمر تعالى المؤمنين أن يستعينوا على أُمورهم بالصبر والصلاة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(البقرة:١٥٣)

(ب) وفى السورة ذاتها على لسان المؤمنين من أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يشربوا منه إلا من اغترف غرفة بيده : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(البقرة:٢٤٩)

(جـ) وفى سورة الأنفال حيث أمر الله المؤمنين بما يلزمهم لمواجهة العدو من شرائط النصر ، وأحدها الصبر : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٤٦).

(د) وفى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٦٥،٦٦).

وهى معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية ، وليست معية العلم والإحاطة ، لأن هذه معية عامة لكل الخلق : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد:٤).

٢- محبة الله تعالى لهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٦)

٣- إطلاق البشرى لهم بما لم يجمع لغيرهم : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥). ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٧) فجمع لهم بين الصلوات من الله والرحمة وبين الاهتداء . وكان عمر يقرؤها ويقول : نِعْمَ العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين . يعنى بالعدلين : الصلاة والرحمة . وبالعلاوة : الهدى . والعلاوة : ما يحمل فوق العدلين على البعير .

٤- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٦) .

٥- توفيتهم أجورهم بغير حساب :﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر:١٠) فما من قُربة ـ كما قال الإمام الغزالى ـ إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر . ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى ـ أى فى الحديث القدسى ـ : «الصوم لى وأنا أجزى به» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات [1].

٦- ضمان النصرة والمدد لهم . قال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران:١٢٥)، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (الأعراف:١٣٧) .. وفى هذا جاء الحديث : «واعلم أن النصر مع الصبر».

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ صـ ٦٢ ط. دار المعرفة ببيروت .

٧- الحصول على درجة الإمامة فى الدين . نقل العلامة ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله :« بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ». ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤)

وقرأ الإمام سفيان بن عيينة الآية فقال : « أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء ».

٨- الثناء عليهم بأنهم أهل العزائم والرجولة : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:١٨٦) ، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى:٤٣) ، وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:١٧)، وفى هذا قيل : الصبر مُرٌّ ، لا يتجرعه إلا حُرٌّ .

٩- حفظهم من كيد الأعداء : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران:١٢٠)

١٠- استحقاقهم دخول الجنة ، وتسليم الملائكة عليهم . قال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان:١٢) ، ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ (الفرقان:٧٥) ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٢٣،٢٤).

١١- انتفاعهم بعبر التاريخ واتعاظهم بآيات الله فى الأنفس والآفاق . قال تعالى لموسى: ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم:٥)، وقال بعد ذكر قصة سبأ ما صنع الله بهم جزاء كفرهم : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ:١٩).

وقال تعالى فى شأن السفن البحرية الضخمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى:٣٢،٣٣).

* * *